

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

لماذا عزم عبد الملك بن مروان بالذهاب إلى بلاد الحرم، وما الذي أعجبه في تلك البلاد ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من دروس سير التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، والتابعي اليوم هو سعيد بن المسيب، وهذا الاسم كما تعلمون مطروق في التاريخ، ومطروق في الصدر الأول من الإسلام . عَدَّ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان العزمَ على حجِّ بيت الله الحرام، وزيارة ثاني الحرمين الشريفين، والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أقبل ذو القعدة زمَّ الخليفة العظيمة ركائبه، وتوجَّه إلى أرض الحجاز، يصحبه السادة الأماجد من أمراء بني أمية، وصحبه أيضاً نفرٌ من كبار رجال الدولة وبعض أولاده، ومضى الراكب في طريقه من دمشق إلى المدينة المنورة، من غير توقفٍ ولا عجل، فكانوا كلما نزلوا منزلاً نصبت لهم الخيام، وفُرِشت لهم الفُرش، وعقدت لهم مجالس العلم والتذكرة، ليزدادوا تفقهاً في الدين، ويتعهدوا قلوبهم ونفوسهم بالحكمة والموعظة الحسنة .

فإذا أزمع الإنسان الحج لا بد له من تطهير النية، ولا بد من التوبة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((إذا حج الرجل بمال من غير حله، فقال: لبيك اللهم لبيك، قال الله: لا لبيك ولا سعديك، هذا مردود عليك))

ذكرت اليوم العبادات الأربع؛ الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، هذه العبادات الشعائرية، لا معنى لها إطلاقاً، ولا جدوى منها، ولا فائدة منها، إن لم تُقم على أساس العبادات التعاملية، والدليل: أمَّا الصلاة فقد قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَذَكَرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

[سورة العنكبوت الآية: 45]

أخرج ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال:

((سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله: إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، فقال: من لم تنهه

صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له))

هل للصلاة قيمة من دون استقامة؟ .

أما دليلُ الصيام فقال عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[سورة البقرة الآية: 183]

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة]

هل له قيمة الصيام؟ .

والحج، قال سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

[سورة آل عمران الآية: 97]

((إذا حج الرجل بمال من غير حله، فقال: لبيك اللهم لبيك، قال الله: لا لبيك ولا سعديك ، هذا مردود عليك))

والزكاة، قال تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[سورة التوبة الآية: 103]

آية ثانية، من يذكر آية تؤكد أن الإنفاق لا قيمة له، قال تعالى:

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَن يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِن كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

[سورة التوبة الآية: 53]

فلا الصلاة، ولا الحج، ولا الزكاة تنفع وتجدي وتثمر، إن لم تُبنِ هذه العبادات على العبادات التعاملية، سيدنا جعفر حينما سئل عن الإسلام، قال: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بِنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ:

((لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ؟ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيِّ، فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةِ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقَطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفُ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصَلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَّنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ))

[أخرجه أحمد في المسند]

بماذا عرف سيدنا جعفر الإسلام؟ بالأخلاق، بالسلوك، هذه أربع عبادات؛ صوم ، صلاة ، حج ، زكاة، من دون استقامة لا معنى لها، لذلك تعجب أن في العالم الآن ملياراً ومائتي مليون مسلم، وليست كلمتهم هي العليا، لا أقول: هي سفلى، ولكن ليست هي العليا، ولا يشكّلون وزناً في العالم، لأن الإسلام ليس صلاةً، وصياماً، وحجاً، وزكاةً، وعندنا دليل أقوى:

((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

هل هذه الخمس هي الإسلام؟ بناء ثلاثين طبق مبني على خمسة دعائم، فهل الدعائم هي البناء؟ لا، فهذا البناء مبني على هذه الدعائم:

((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

هذه حقائق أساسية، وفروا أوقاتكم، الدين كله أخلاق، الدين كله صدق، الدين كله أمانة ، الدين كله وفاء، وإخلاص، وبذل، وعطاء، وتضحية .

ولما بلغ الخليفة المدينة المنورة أمّ حرمها الشريف، ونشرف بالسلام على ساكنها محمد عليه الصلاة والسلام، وسعد بالصلاة في الروضة المطهرة الغراء، فذاق من برد الراحة ، وسلام النفس ما لم يذق مثلهما من قبل، وعزم أن يطيل إقامته في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وكان من أشد ما استأثر باهتمامه في المدينة المنورة حلقات العلم .

أخواننا الكرام، هذه البلدة أينما ذهبت لن تجد مثلها في دروس العلم، فمن فضل الله؛ أن الله حباً هذه البلدة بهذه المجالس، والناس مقبلون عليها إقبالاً شديداً، يقول مؤلف الكتاب: إنه من أشد ما استأثر باهتمام الخليفة عبد الملك بن مروان في المدينة حلقات العلم، التي كانت تعمر المسجد النبوي الشريف، فأداء الصلوات يمكن أن يكون في أيّ مكان، فأقل مهمة للمسجد أن تقام فيه الصلوات، ولكن أخطر مهمة أن يكون منارة للهدى، ومركز إشعاع، ومركزاً هداية، ومكان تعليم وتوجيه، ومكان تدقيق وبتّ المواقف، فالمسجد له رسالة خطيرة، غير أن في عصور الانحطاط فرغ المسجد من مضمونه، وبقي لأداء الصلوات، والآن أنا أتمنى وأرجو أن تعود للمسجد رسالته العظمى .

تألّق في هذه المجالس العلماء الأفاضل من كبار التابعين، كما تتألّق النجوم الزهر في كبد السماء، فهذه حلقة عروة بن الزبير، وتلك حلقة سعيد بن المسيّب، وهناك حلقة عبد الله بن عتبة .

ما هو الأمر الذي نادى عبد الملك حاجبه عليه. وهل حقق عبد الملك مراده في هذا الأمر ؟

فذات يوم صحا الخليفة من قيلولته، في وقت كان لا يصحو فيه عادةً، فنادى حاجبه، وقال: (يا ميسرة، فقال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: امض إلى مسجد رسول الله، وادع لنا أحد العلماء ليحدثنا، فمضى ميسرة إلى المسجد النبوي

الشريف، وأجال النظر فيه، فلم يرَ غير حلقةٍ واحدة، توسَّطها شيخٌ نَيَّفٌ على السنين من عمره، في بساطة العلماء، وعليه هيبتهم ووقارهم، فوقف غير بعيدٍ من الحلقة، وأشار للشيخ بإصبعه، فلم يلتفت الشيخ إليه، ولم يأبه له ، فاقترب منه، وقال: ألم ترَ أني أشير إليك؟ .

قال: إليّ أنا .

قال: نعم .

قال: وما حاجتك؟ .

قال: استيقظ أمير المؤمنين، وقال: امضِ إلى المسجد، وانظر هل ترى أحدًا من حدّاثي فائتن به؟ .

فقال له الشيخ: ما أنا من حدّاته .

فقال له ميسرة: ولكنه يبغي محدثاً يحدثه .

فقال الشيخ: إنَّ من يبغي شيئاً يأتي إليه .

- هذا يذكرني بهارون الرشيد حينما قدم المدينة، والقصة نفسها، قال: (أتوني بأحد علماء المدينة ليعظني، فجاؤوا

الإمام مالك، فلما دُعِيَ إليه، قال لهم: قولوا لهارون: العلمُ يُوتَى ولا يأتي) هذه قاعدة .

هذه القاعدة، أنا أرجو الله سبحانه وتعالى أن تتخلَّقوا بها، لك حاجة عند أخ، تتصل به، تعال إليّ، ما هذه تعال إليّ؟

ما دمت بحاجة إليه فعليك أن تأتيه، ودائماً المقصود يؤتى، والقاصد يأتي، والمطلوب يؤتى، والطالب يأتي، هذه

قاعدة، فمن خالفها فقد أساء - .

قال له: إن من يبغي شيئاً يأتي إليه، وإن في حلقة المسجد متسعاً له إذا كان راغباً في ذلك، -لك رغبة أهلاً وسهلاً،

لكن هذه العزة لا تكون إلا بالاستقامة، ومن دون استقامة تقع في خوف، لا يمكن لإنسان يشرك إلا ويقذف الله في

قلبه الخوف، ذكرت اليوم قانون التيسير، وقد تعرفونه، قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾

[سورة الليل الآية: 5-6]

أما التيسير، قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾

[سورة الليل الآية: 8-10]

وقانون العزة، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾

[سورة يونس الآية: 26]

أحسن وارفح رأسك، إن أسأت فعليك أن تحمي رأسك، إن أسأت يستطيع أي إنسان أن ينالك بسوء .

هناك قانون ثالث؛ قانون الخوف، في اللحظة التي تشرك فيها يقذف الله في قلبك الخوف، والدليل:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا﴾

[سورة آل عمران الآية: 151]

هذه الباء للسببية، قال تعالى:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا﴾

[سورة آل عمران الآية: 151]

لَمْ يَخَفْ هَذَا الشَّيْخُ؟ أَغْلَبُ الظَّنُّ أَنَّهُ مُوَحَّدٌ، وَأَغْلَبُ الظَّنُّ أَنَّهُ مُسْتَقِيمٌ، فَلَا دَاعِي أَنْ يَخَافَ، وَلَا أَنْ يَنَافِقَ - .
قال: إن في حلقة المسجد متسعاً له إذا كان راغباً في ذلك، والحديث يؤتى إليه، ولكنه لا يأتي .
فعاد الحاجب أدراجه، وقال للخليفة: ما وجدت أحداً في المسجد غير شيخٍ أشرتُ إليه فلم يقم، -فدائماً أتباعُ
السلطان لهم شعور بالفوقية- قال له: أشرتُ إليه فلم يقم، فدنوت منه، وقلت: إن أمير المؤمنين استيقظ في هذا
الوقت، وقال لي: انظر هل ترى أحداً من حدائي في المسجد فادعه لي؟ فقال لي في هدوء وحزم: إنني لست من
حدّائه، وإن في حلقة المسجد متسعاً إذا كان راغباً في الحديث .
فتهد عبد الملك بن مروان، وهباً قائماً، واتجه إلى داخل المنزل، وهو يقول: ذلك سعيد بن المسيب، -عرفه من
كرامته، وعرفه من مواقفه- ليتك لم تأتته، ولم تكلمه) أنا ما أردت هذا، هذا لا يأتي .

إليك هذه القصة التي وردت عن ابن المسيب :

فلما ابتعد عن المجلس، وصار في الداخل، التفت أصغرُ أولاد عبد الملك إلى أخ له أكبر منه، وقال: (من هذا
الذي يمتنع على أمير المؤمنين، ويستكبر عن المثل بين يديه وحضور مجلسه، وقد دانته له الدنيا، وخضعت لهيبته
ملوك الروم؟ .

فقال الأخ الأكبر: ذاك الذي خطب أمير المؤمنين ابنته لأخيك الوليد، فأبى أن يزوجه منها .

فقال الأخ الأصغر: أبى أن يزوجه من الوليد بن عبد الملك؟ وهل كان يروم لها بعلأً أسمى من ولي عهد أمير
المؤمنين؟ .

-هذه هي القصة، والعجب كيف أن هذا التابعي الجليل خطبت ابنته لولي عهد المسلمين، لابن أمير المؤمنين الوليد
بن عبد الملك، الذي بنى الجامع الأموي، وهذا التابعي الجليل أبى أن يزوجه إياها؟- هل كان يروم لها بعلأً أسمى
من ولي عهد أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين من بعده؟! فسكت الأخ الأكبر، ولم يجبه بشيء .
فقال الأخ الأصغر: إذا كان قد ضنَّ بابنته على ولي عهد أمير المؤمنين، فهل وجد لها الكفاء الذي يليق بها، أم
أنه حال دونها ودون الزواج كما يفعل بعض الناس، وتركها قعيدة البيت؟ .

فقال له أخوه الأكبر: الحقُّ أنني لا أعرف شيئاً من خبرها، وخبره معها، فالتفت إليهما أحد الجالّس من أبناء
المدينة، وقال: إذا أدنَّ الأميرُ لي قصصتُ عليه خبره كله؛ فقد تزوجتُ فتىً من فتيان حينا، يقال له: أبو وداعة،
وهو جارنا بيت بيت، ولزواجه منها قصةٌ طريفةٌ رواها لي بنفسه .

فقال الأخوان: هاتها .

قال الرجل: حدثني أبو وداعة، قال: ...

- هذه القصة محور هذه السيرة، طبعاً لهذه القصة معانٍ واستنباطات كثيرة، وكل واحد عنده بنت، فعليه أن يقتدي بهذا التابعي الجليل، إمّا أن يدخلها إلى الجنة، وإمّا أن يفتتها، لا أقول إلى النار، بل يفتتها- .

قال: كنت كما تعلم أأزم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم طلباً للعلم، وكنت أداوم على حلقة سعيد بن المسيب، وأزاحم الناس عليها بالمناكب، فتغيّبتُ عن حلقة الشيخ أياماً، فتفقّدي، وظنّ أن بي مرضاً أو عرض لي عارض .

-تفقّدي؛ التفقّدُ من أسس التربية، فالمعلم يلقي الدرس ويمشي، هذا معلم، أما المربي فيتابع، يتفقّد أخوانه، ويسأل عن أحوالهم المعاشية، والعلمية، والدينية، وعن صحتهم، وعن أهلهم، وأولادهم، فكن مريباً أفضل من أن تكون معلماً، والشيوخ الصادقون في التاريخ الإسلامي كانوا مريبين، ولم يكتفوا بالتعليم، لأن المربي أرقى عند الله من المعلم، والمربي يتابع، ويقطف الثمار، فلو أنّ إنساناً زرع فسيلة، وتركها حتى يبست، لو زرعت مائة ألف فسيلة، ولم تتعدها ليبست، ولو زرعت مائة فسيلة، وتعاهدتها بالسقيا، والتقليم، والعناية، ومكافحة الأمراض، حتى كبرت هذه الفسائل وأثمرت، وأينعت ثمارها، هذا أفضل عند الله من أن تكثفي بغرس الفسائل- .

قال: تفقّدي وظنّ أن بي مرضاً، -لهذا أنا أتمنى على كل أخ، وكلامي واضح كالشمس، أتمنى على كل أخ أن يتعهد أخاً ويتفقّده، ألا تتمكن أن تؤاخي أخاً في الله؟ والنبي قال: تأخيا اثنين اثنين .

تأخوا، أنت أخي في الله، فإن قصرت فخذ بيدي، وأنت إن قصرت سأخذ بيدك، والله عز وجل يقول:

﴿تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾

[سورة المائدة الآية: 2]

فسأل عني من حوله فلم يجد عند أحدٍ منهم خبراً، فلما عدتُ إليه بعد أيامٍ، حيّاني وقال: أين كنت يا أبا وداعة؟ . قلت: والله يا سيدي توفيت زوجتي فاشتغلتُ بأمرها .

قال: هلا أخبرتنا يا أبا وداعة فنواسيك، ونشهد جنازتها معك، ونعينك على ما أنت فيه؟ .

قلت: جزاك الله خيراً، وهممتُ أن أقوم فاستبّقتاني، وقال لي: اجلس، فجلستُ حتى انصرف جميع من في المجلس، ثم قال لي: أما فكّرت في استحداث زوجة لك يا أبا وداعة؟ .

قلت: يرحمك الله، ومن يزوّجني ابنته، وأنا شابٌ نشأ يتيماً، وعاش فقيراً، فأنا لا أملك غير درهمين أو ثلاثة دراهم؟ .

فقال: أنا أزوّجك ابنتي .

فانعقد لساني، وقلت: أنت، أتزوّجني ابنتك بعد أن عرفت من أمري ما عرفت؟ .

قال: نعم .

- هذا هو الإيمان، فعن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:

((إِذَا خَظَبَ إِلَيْكُمْ، مِنْ تَرْضُونَ دِينَهُ وَخَلْقَهُ فَرُوجُهُ، إِلَّا تَفَعَّلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

قال لي شخص كلمة دمعت لها عيني: وقفت بنتٌ على سرير أبيها وهو ينازع، أنا لا أقرأها على قولها، ولا أوافق على عملها، ولكن هذا ما حدث، قالت لأبيها: حرمك الله الجنة كما حرمتني نعمة الأولاد، كلما جاء خاطب رفضه ووسمه بصفات لا تليق؛ هذا فقير، وهذا ليس وسيماً، فبقيت بلا زواج .

قال: نعم، فنحن إذا جاعنا من نرضى دينه وخلقه زوجناه، وأنت عندي مرضي الدين والخلق .
دين وأخلاق، وليس معك شيء، فليست مشكلة، قال تعالى:

﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

[سورة النور الآية: 32]

ثم التفت إلى من كان قريباً منا، وناداهم، فلما أقبلوا عليه، وصاروا عنده، حمد الله عز وجل، وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد صلوات الله عليه، وعقد لي على ابنته، وجعل مهرها درهمين اثنين .
- وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُمْنُ الْمَرْأَةِ تَيْسِيرُ خِطْبَتِهَا وَتَيْسِيرُ صَدَاقِهَا))

[أخرجه أحمد في المسند]

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((إِنَّ أَعْظَمَ النِّكَاحِ بَرَكَاتٍ أَيْسَرُهُ مُؤْنَةً))

[أخرجه أحمد في المسند]

فقلت وأنا لا أدري ما أقول من الدهشة والفرح .

-أيعقل هذا؟ هذا التابعي الجليل، يبدو أن له ابنة في أعلى مستوى، حتى خطبها أمير المؤمنين لولده الوليد .
لا تقل: المسيب، المسيب، أحد علماء اللغة هكذا اسمه، فكان يقول: سيب الله من سيبي، المسيب غير المسيب، إذا قلت: المسيب؛ أي متقلت، المسيب؛ سعيد بن المسيب .
ثم قصدت بيتي، وكنت يومئذ صائماً، فنسيت صومي، وجعلت أقول: ويحك يا أبا وداعة، ما الذي صنعت به نفسك؟
ممن تستدين؟ ممن تطلب المال؟ .

هناك حديث إن قرأته اقتشعر جلدك، فعن أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ؛ عَوْنُهُمُ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَكَاتِبُ الَّتِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّكَاحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعُقَافَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وظللت على حالي تلك حتى أذن المغرب، فأدبْتُ المكتوبة، وجلستُ إلى فطوري، وكانت خبزاً وزيتاً، فما إن تناولتُ منه لقمةً أو لقمتين حتى سمعت الباب يُقرع، فقلت: من الطارق؟ .

قال: سعيد .

قال: فو لله لقد مرّ بخاطري كلُّ إنسانٍ اسمه سعيدٍ أعرفه إلا سعيدَ بن المسيب، -لم يتوقَّعه استعرض كلُّ إنسانٍ، لكن لم يخطر في باله إطلاقاً أن يكون الطارق سعيد بن المسيب، ذلك لأنه لم يره منذ أربعين سنةً إلا بين بيته والمسجد- فتحتُ البابَ فإذا بي أمام سعيد بن المسيب، فظننتُ أنه قد بدا له من أمر زوجي من ابنته شيء، لعله

ندم أو حدثت مشكلة، فقلت له: أبا محمد، هلاً أرسلت إليّ فأنتيك؟ .

قال له: بل أنت أحق أن آتي إليك اليوم .

قلت: تفضل عليّ .

قال: كلا، إنما جئت لأمر .

قلت: وما هو يرحمك الله؟ .

قال: إن ابنتي أصبحت زوجةً لك بشرع الله منذ الغداة، وأنا أعلم أنه ليس معك أحدٌ يؤنس وحشتك، فكرهتُ أن تبيت أنت في مكانٍ، وزوجتك في مكانٍ آخر، فجننتك بها .

-فما بال نساء اليوم، يقول لها أبوها أو أمها: ابقِي عندنا، هو يقوم بشؤونه وحده، هل هذا أب؟ لا أكل عنده، ولا تنظيف، أما سعيد فقد كره أن يبقى زوج ابنته ليلةً وحده من دون زوجته، ومن؟ سعيد بن المسيب، ومن خطبها؟ ابن أمير المؤمنين، لمن زوجها؟ لأحد تلامذته الفقراء- .

فقلت: ويحي جننتي بها، لم يكن مستعداً .

قال: نعم .

فظنرت فإذا هي قائمةٌ بطولها، فالتفت إليها، وقال: ادخلي إلى بيت زوجك يا بنيّتي، على اسم الله وبركته، فلما أرادت أن تخطو تعثرت بملاءتها من الحياء، حتى كادت تسقط على الأرض، أما أنا فقد وقفتُ أمامها مشدوهاً، لا أدري ماذا أقول؟ ثم إني بادرتُ فسبقتها إلى القصة التي فيها الخبز والزيت، فنحيتُها من ضوء السراج حتى لا تراها، ثم صعدتُ إلى السطح، وناديتُ الجيران، فأقبلوا عليّ، وقالوا: ما شأنك؟ فقلت: عقدَ لي سعيدُ بن المسيب على ابنته اليوم في المسجد، وقد جاعني بها الآن على غفلة، فتعالوا أنسوها، حتى أدعوَ أمي فهي بعيدة عن هذه الدار، فقالت عجوزٌ منهن: ويحكُ أندري ما تقول؟ أزوجك سعيد بن المسيب ابنته، وحملها لك إلى البيت بنفسه، وهو الذي صنَّ بها على الوليد بن عبد الملك؟ فقلت: نعم، وها هي ذي عندي في بيتي، فهلموا إليها وانظروا، فتوجّه الجيران إلى البيت، وهم لا يكادون يصدقونني، ورحّبوا بها، وأنسوا وحشتها .

-الحقيقة أنّ الإنسان إذا تحرك وفق ما تقتضيه عوائد الناس صار عادياً، لكن هذه بطولة-

وما هو إلا قليل حتى جاءت أمي، فلما رأتها التفتت إليّ، وقالت: وجهي من وجهك حرام، إن لم تتركها لي حتى أصلح شأنها، ليس هذا معقولاً، نعتني بها، ونلبسها، ثم أرفها إليك كما تزفُ كرائمُ النساء .

فقلت: أنت وما تريدين، فضممتُها إليها ثلاثة أيام، ثم زفّتها إليّ، فإذا هي من أبهى نساء المدينة جمالاً، وأحفظ الناس لكتاب الله عز وجل، وأرواهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعرف النساء بحقوق الزوج .

-عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

فمكثتُ معها أياماً لا يزورني أبوها أو أحدٌ من أهلي، ثم إنني أتيت حلقة الشيخ في المسجد فسلمتُ عليه، فردَّ علي

السلام ولم يكلمني، أي لكي لا يحرمني، فلما انفضَّ المسجد ولم يبقَ غيري، قال: ما حال زوجتك يا أبا وداعة؟ كيف زوجتك؟ .

قلت: هي على ما يحبُّ الصديقُ ويكرهُ العدوُّ .

قال: الحمد لله .

فلما عدتُ إلى بيتي وجدته قد وجَّهَ إلينا مبلغاً وفيراً من المال، لنستعين به على حياتنا.

-فأنا لي هذا التعليق اسمعوه مني: الذي عنده بنات وأولاد، لماذا يهتم بتزويج أولاده الذكور، وتأمين بيت لهم، وعمل، وهذه البنات التي عنده؛ الوديعه، المخلصه، الوفية، لماذا لا يفكر أن يؤمِّن لها بيتاً، كما أمَّن بيتاً لأخيها، واختار لهذه الفتاة شاباً مؤمناً صالحاً يكون مُعيناً على زواجها؟ أمّا هو فبالعكس، كل ثروته لأولاده الذكور، والبنات حتى يأتي خايط كفاء، لا يهتمه، هذا موقف غير أخلاقي، وغير عادل، هذا ابنك، وهذه ابنتك، ابنك أمتت له بيتاً وعملاً، فلو أمتت لها بيتاً وتزفها لأحسن خايط لكان هذا هو العدل .

وهنا رجعنا إلى القصة، من يرويهها؟ جارُّ أبي وداعة يخاطب ابن عبد الملك-

فقال ابن عبد الملك: عجيبٌ أمرُ هذا الرجل!!.

فقال له رجل من أهل المدينة: وما وجهُ العجب يا أيها الأمير؟ إن امرؤً جعلَ دنياه مطيةً لأخراه، واشترى لنفسه ولأهله الباقية بالفانية، فو الله إنه ما ضنَّ على ابن أمير المؤمنين.

-هناك شاب عنده مكتبة صغيرة بأحد أحياء دمشق الراقية، أمامه بنايات، كل بيت ثمنه أربعون مليون، وهذه الفتيات يدخلن إلى بيوت آبائهن ويخرجن، هو شاب مستقيم حافظ لكتاب الله، وقد تآقت نفسه أن يتزوج من هذه الفتيات، فكلف والدته أن تخاطب له، فقالت له: أنت ليس معك شيء، والدخول إلى مثل هذه البيوت يحتاج إلى ملايين، قال لها: حاولي، فرضت أشد الرفض، فلما ألحَّ عليها كذبت عليه، قالت له: ذهبت، ولم يوافقوا، لا عندك بيت، ولا شيء .

تألم الشاب، فأنا ما دنبي، شاب مؤمن، مستقيم، ولأنه صادق، فبعد أسبوع أو أسبوعين، يطلُّ على هذا الشاب أحد قاطني هذه الأبنية الفخمة، قال له: يا بني، هل أنت متزوج؟ فقال له: لا والله يا سيدي، قال له: عندي بنت تتاسبك، ما قولك؟ قال له: أتمنى، قال له: ابعت والدتك، مثل العادة ظنُّ أن بها علة، ما فيها شيء، من أكمل النساء . إذا صدق الإنسان مع الله عز وجل، واستقام، انتظر من الله كل خير، الله لا يخيب ظنه- . فو الله؛ إنه ما ضنَّ على ابن أمير المؤمنين بابنته، ولا رآه غير كفاء لها، وإنما خاف عليها فتنة الدنيا) .

ما هو السؤال الذي وجه إلى ابن المسيب، وماذا قيل عنه ؟

لقد سأله بعض أصحابه، فقال: (أتردّ خطبة أمير المؤمنين، وتزوّج ابنتك من رجلٍ من عامة المسلمين؟ .

اسمعوا جواب سعيد بن المسيب:

فقال: إن ابنتي أمانة في عنقي، وقد تحرّبت فيما صنعتها لها صلاح أمرها.
قيل له: وكيف؟ -معقول- الرجلُ معه درهمان فقط، وطعامه خبز وزيت، وبيته كوخ، وخطبها ابن الخليفة هنا
أحسن لها .

فقال: ما ظنكم بها إذا انتقلت إلى قصور بني أمية، وتقلّبت بين رياشها وأثاثها، وقام الخدم والحشم والجواري بين
يديها، وعن يمينها وعن شمالها، ثم وجدت نفسها بعد ذلك زوجة الخليفة، بعد ما يتولى الحكم، أين يصبح دينها
عندئذ؟ .

فقال رجل من أهل الشام: يبدو أن صاحبكم طرازٌ فريداً من الناس.
فقال الرجل المدني: والله ما عدوت الحق أبداً؛ فهو صوامٌ نهاراً، قوامٌ ليلاً، حجّ نحواً من أربعين حجةً، وما فاتته
التكبيرة الأولى في مسجد رسول الله منذ أربعين عاماً، ولا عرف أنه نظر إلى قفا رجل في الصلاة، وقد كان في
وسعه أن يتزوج بمن يشاء من نساء قريش، فمن تزوج سعيد بن المسيّب؟ .

فأثر بنت أبي هريرة على سائر النساء، وذلك لملازمته رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسعة روايته لحديثه،
وشدة رغبته في الأخذ عنه، ولقد نذر نفسه للعلم منذ نعومة أظفاره، فدخل على أزواج النبي عليه الصلاة والسلام
وتأثر بهن، وتتلّمذ على يد زيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وسمع من عثمان، وعليّ،
وصهيب، وغيرهم من صحابة النبي الكريم، وتخلّق بأخلاقهم، وتحلّى بشمائلهم، ولقد كانت له كلمة يردّها على
الدوام، حتى غدت وكأنها شعاراً له، وهي قوله: ما أعزت العبادُ نفساً بمثل طاعة الله، ولا أهانت نفسها بمثل
معصية الله) .

ما هي الفائدة التي نجنيها من هذا الدرس ؟

أيها الأخوة، هذا الدرس قدوة لكل أب، فابحث عما يصلح لابنتك في آخرتها، ولا تعبأ بالدنيا، فإنها تأتي وهي
راغمة .

أيها الأخوة، ينبغي أن تكون هذه القصة نبراساً لكل أب، ولكل أم، ولكل شاب، الزواج تبعه ومسؤولية على
مستوى الآباء، وعلى مستوى الشباب أنفسهم، فلذلك أيّ إنسان له بنت، إذا ربّأها تربيةً دينية، وزوّجها من رجل
مؤمن، فكأنه أعتق نفسه من النار، فيستحق دخول الجنة، إنسانٌ زوّج ابنته من رجل يحفظ لها دينها، لأن الزوج
أحياناً لا يتابع رسالة الوالد، فالأب يربي ابنته، فيأتي الزوج، ويصرفها إلى اتجاه آخر لا يرضاه الأب، فالأب
مسؤوليته أن يحسن اختيار زوج ابنته، وهناك قصص كثيرة جداً مؤلمة جداً، لأن الأب لم يحسن اختيار الزوج،
فساهم في فتنة ابنته .

سعيد بن المسيّب؛ هذا التابعي الجليل له، هذه القصة الشهيرة التي توخّى من خلالها مصلحة ابنته الأخروية، لأنّ
ثمّة مصالح دنيوية ومصالح أخروية، والعاقل والموقّف هو الذي يتوخّى لابنته الصالح الأخروي .

والحمد لله رب العالمين